جون ديوي
فلسفته وآراؤه في التربية

لتوفيق اسكندر

﴿ تمهيد ﴾ لا عجب في أن يتجه الفيلسوف الحديث الى التربية فقد اتجه اليها قدماء الفلاسفة من قبل . ولكن العجب في أن تؤثر آراؤه تأثير آراء ديوي في عصره على قصر المدة التي قضاها في الاشتغال بالتربية في جامعة شيكاغو (١٨٩٤ — ١٩٠٤) وهي المدة التي عاد بعدها الى الفلسفة بانتقاله الى جامعة كولمبيا بنيويورك . وتمثل فلسفته العملية روح العصر من انتشار الرأسمالية واستخدام الآلات وفكرة وحدة العالم والتطوّر والتجريب الاجتماعي . على أن ديوي يمثل فوق ذلك استقلال الفكر الاميركي عن الاوروبي فقد انتقلت الفلسفة الأميركية من المثالية المجردة في عهد Emerson الى العقلية العلمية لسبنسر والتطوّر لداروين في عهد Fiske وأخيراً الى البرجماتزم والتأثر بالبيولوجيا وعلم النفس . وقد تأثر ديوي بستانلي هول ووليم جيمس وكان كلاهما مناهضاً لاتّساع الفكر الاميركي الفكرَ الاوروبي

١ — ﴿ الفلسفة في رأي ديوي ﴾ يرى ديوي ان الفلسفة نظرة عامة الى الحياة أي أن يتخذ الفرد من العالم موقفاً عمليًّا دائماً حسبما تتطلبه نتائج العلوم المختلفة التي تمدنا بالحقائق عن الحياة ، ويرى كذلك ان الفلسفة تمثل الوحدة والتوازن والاستمرار في وسط التعدد والاضطراب . وجعل لها مهمتين (ا) نقد الاغراض القائمة استناداً الى حالة العلم الراهنة . (ب) بيان تأثير العلم في مستقبل الانسان وجهده الاجتماعي لأن العلم الواقعي لا يعنى بالاغراض ولا يهتم بآثارها الاجتماعية . والفلسفة فرضية كالتفكير وليست أكيدة كالعلم وهي البحث في الممكن لا في الواقع وقيمتها في تحديد المشكلات واقتراح طرق علاجها لا في تقديم الحلول لأن الحلول لا يمكن أن تقدم إلاّ بالعمل . وتنشأ الفلسفة حين تتعارض المصالح في المجتمع كتعارض الدين مع العلم أو الفرد مع المجتمع وهكذا . والحلول الفردية لمثل هذه المشكلات لا تؤدي الى نظام فلسفي (system) لأن لكل مجتمع وكل عصر له فلسفته الخاصة به في النظريات الفلسفية التاريخية بين انقسام المجتمع الى طبقات متفاوتة الحظ في الثقافة أو الثروة أو الحقوق . كما تبين فيها كذلك شخصية الفرد حين نمت واستقلت . ولكن

فشددت الرحال في نصرة القوم وقد عزّ في الجهاد المعينُ
وقضيت الأعوام في نقل نقـــد تصاريفها وآناً تلين
ذقتَ أحـــداثها مَرٌّ وحلو في ظروف حـديثهنّ شجون
فلعمت التي العصيَّة بالعزم وذو العزم بالنجاح قمين
وأثابت بغداد مسعاك إذ بـــتَّ وفيها لك المكان المكين

***

ما ترملت ناعم البال حتى كاد كيداً لك الزمان الخؤون
نزلت علّةٌ بجسمك لم يقوَ عليها وهو البنـــاءُ المتين
فوهى الهيكل المنيع ولكن سلم الجـــوهر الرفيع الحصين
فتفرغتَ للتآليف يعليهـــا صميرٌ حيٌّ وذهنٌ رصـــين
أين شغل الديوان عما أفاد النـــشرق ذاك التحبير والتدوين
كم كتاب أبحتَ فيه كنوزاً كان في الغيب ذخرها المكنون
تلك للضاد ثروة نشرت فيـــها علوم مطرية وفنون

***

يا بني مصر يا بني العُـرْب ان العهدَ دَيْنٌ والحفظ للعهد دين
الفريق المقدام والعالم العامل والكاتب الأديب المـــبين
هل توفّيه حقّه مرثياتٌ أو يوفيه حقّـــه تأبين
بان عن موقع اللحاظ بحياه ولكن نوره لا يبـــين
فليخلد في قلب كل شكور ذلك الصادق الوفيُّ الأمين
يا صديقاً لجمت فيه واني لم أحل آنه وشكاً يؤونـــ
ان قبراً تزار فيه لروضٌ قد كساه الريحان والنسرين
فاذا أخطأ السحاب ثراه نضّرته عبـــرة سفته العيون
يا شقيق الفقيد صبراً على رز ئيك فهو الشقيق وهو المعين
لا يردُّ القضاء حزن جزوع كل من عاش بالقضاء رهين

«أهوى الحياة وحسبي من معايبها أني أعيش بتمويه وتدليس»

وأشبه الكلب كما تشبهون، وأجري وراء الدنيا كما تجرون:

«كلاب تعاوت أو تعاوت لجيفة وأحسبني أصبحت ألامها كلبا»

وما أنسى أن يسير أحد على غراري، فأنا شرٌّ من ولدت حواء من الأبناء:

«لو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الخلق حواء»

وأنا أول من يبدأ بذم نفسه قبل أن أذم غيري:

«بي الأرض مهلاً إن ذممت فمالكم فإني بنفسي لا محالة أبدأ»

وليس أدل على فساد طبعنا من إننا إذا صدقنا صادقاً بنعت أصولنا بالذوم ثارت ثائرتنا:

«وقضيتنا من قول زاعم حق: «أننا في أصولنا لؤماء»

وما أشبهني بالحية في الظلم والعدوان:

«فأنا ابن العنصر المستودع في الأرض، وأبو العثرات المرفوعة الى رب العرش، وأخو الجنايات الموجبة نقيض العفو. أظلمُ من بنت الجبل (الحية)، ام العثمان (ابن الحية)، أخت الصِّلّ (الخبيث من الحيات) المذؤول. أظلمُ على الشجرة وألوم الأغمار»

الطبع والعقل

فإذا عنَّ لباحث ان يسأله: ألم تُشِدْ في جهرة أقوالك بالعقل، وتغنَّ في تمجيده والنصح باتباعه؟ ألم تقل في رسالة الغفران: «ومتى جُعل المعقول هادياً نفع من الفلسفة صادياً»؟ ألم تقل في لزومياتك:

«يخالف الطبعَ معقولٌ خصصت به فاقبل اذا ما نهاك العقلُ أو أمرا»

فكيف لا تتخذه لهديك الطريق المستقيم، وتنقذك من طبعك الذميم؟ أجابنا في غير تردد:

«إن العقل — كما قررت لكم في جمهور شعري ونثري — ليراس سير طرائق الحياة الدنيا، ويحصِّل المعضلات الفكرية العويصة. ولكنه عاجز أمام الطبع الذي مزجت به روح الأنام لا يكاد يستطيع معه حتى يخرج من المعركة دامياً مهزوماً:

تحارب الطبع الذي مزجت به روح الأنام وعقلهم فغلبه»

وكم يبالي عقلي صما نسوه، وخلقي فيه طبعي الذميم

«نهاني عقلي عن امور كثيرة وطبعي الها بالمروءة جاذبي»

وماذا يجدي بك لذا أردت أن تبقي لون الغراب، أو تستسل العرعر الموشحة في فروة بعد صبغها:

« والله حاول أن يهذب أهله فاذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضح الجناح أصابه تعذيب »

إن الطبع أقوى من العقل وأشد مراساً، فهو لا يلين لنصحه، ولا يخضع لسلطانه.

« فطبعك سلطان لعقلك غالب »

فهو لا يفتأ يلغي كل ما يشير به العقل على أصحابه:

« اذا ما أشار العقل بالرشد جرهم الى الغي طبع، أخذه أخذ صاحب »

ذلك بأن الشر غريزة متأصلة في كل نفس منذ جدنا الأعلى:

« ولسيد الأقوام عند حجابه طبع يقاتله الحجى ويحارب
والشر في المجد القديم غريزة في كل نفس منه عرق ضارب »

أو كما يقول: « والطبع يحفر ذمة من ناسك والعقل يكره — جاهداً — اخفارها »

وما دام الفوز مكتوباً للقوي على الضعيف في هذه الحياة، فان الغلبة مكفولة دائماً للطبع على العقل. وربما اتخذه الطبع خادماً يذلل له ما يستعصي عليه ارتياده من أفانين الشرور، وسخر كل ما يملك العقل من عتاد وقوة، ليمهد له ما صعب من طرائق الغي والضلال، وحينئذ يصح العقل الراجح نكبة راجحة بالغة الأثر محققة الضرر، ويصبح أقل الاحياء حظاً منه، أقلهم قدرة على الأذية والضرر

« ان الله وله على المكان، جعل الشر غريزة في الحيوان. فأبعدهم من الشرور، أقلهم حظاً في المعقول »

الطبع والعادة

فاذا عن لنا أن نسأل شيخ المعرة عن رأيه في العادات وأين هي من الطبائع، قال:

« الطبع شيء قديم لا يحس به وعادة المرء تدعى: طبعه الثاني »

وقال: « هي العادات تجري الشيخ منها على شيم يعودها الصبي »

فان سألناه: وهل تتبدل العادات أيها الشيخ الجليل، أم هي ثابتة كالطبائع الانسانية؟ — قال

« أما في المعقول فلا. وأما في المقدور فلي. العادات — باذن الله — متغيرات »

والمعري الذي يدين بالقضاء والقدر، فيقول: « والعقل زين ولكن فوقه قدر »

هو الذي يقول

« قد يبدل الناس أخلاقهم بل فسد الدهر من قولهم بدلا »

على أنهُ قد يقسم الطبائع الى قسمين : طبائع أصيلة ، وأخر مستحدثة . فيقول :

« طبع جبلت عليه ، ليس يزائل طول الحياة ، وآخر مُتَعَلَّم

وهناك الطبع الفنيّ ، وهو شيء آخر غير الطبع النفسيّ الذي عرضنا له في هذه الوجازة ، وهو ما يشير اليه شيخنا بقوله :

« والطبع يكسر بيتاً أو يقوّمه بأهون السعي تحريكاً وتسكينا »

والطبع الانساني التعلّم المكتسب ، ليس — على أي حال — في قوة الطبع الأصيل الفياض بالشر ، وليس في متانته وثباته :

« والشر في طبع الأنام ، فإنْ يُبِنْ شيئاً سواه ، فليس بخيمَ بخيار »

والخيمُ — كما تعلمون — الطبعُ ، والنجار : الأصل . فهو يقول : « إن ما يبدو من أخلاقنا المستحدثة التي تخالف طبائعنا ليس طبعاً أصيلاً في نفوسنا » فاذا سألنا شيخ المعرة : «فهل من دواء يَشفي ما كمن في هذه الأرض من طبائعهم الناسدة وأدوائهم الجامحة؟» . قال :

« اذا كان الهوى في النفس طبعاً فليس بغسير مبتّها سلوُّ »

رحم الله استاذه وأستاذنا المتنبي القائل :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا ! »

الكنز العلائي

ان بعض ما أبدعه شيخنا الجليل وشاعرنا الفيلسوف ، في تصوير القدرة الالهية والطبيعة الانسانية ، من لوحات بيانية مشرقة بأروع آيات الفن العالي والابداع الاصيل ، وإن في أكثر ما أوردناه حافزاً للتأمل والافاضة والشرح ، حتى لتضيق به الاسفار الضخمة والمحاضرات المستفيضة . على اننا اجتزأنا من ذلك لمعين الفياض بما يحتزي به الشارب من النهر الجاري بغُرْفة تشفي الصدى ، وتروي الظمأ .

ونحن أمام الكنز العلائي أشبه برواد الكنوز الذين تمثلهم الاساطير : يقفون أمام نفائسها حائرين مأخوذين . لا يعرفون ماذا يختارون منها وماذا يتركون . ولنا الى هذا الكنز العلائي الحافل عودة قريبة — ان شاء الله — لنرى كيف تمثل شيخنا الجليل طبائع الانسان في الدار الآخرة بعد أن بعثتهم القدرة الالهية . وكيف صوّرها حياله الوثاب في قصته الخالدة رسالة الغفران . ونعرف هل تبدل الناس في العالم الآخر ، وهل غيرت الجنة والنار من طبائع ساكنيها بعد أن تحول كل شيء من الغد الى الصد ، ثم تغيرت الاشكال والصور والطبيعات . وتبدلت عقائد وعادات .